الفصل الرابع

صبر العلماء على شظف العيش من أجل العلم!!

تحمَّل العلماء الكثير في سبيل المحافظة علىٰ مكانة العلم وعدم المساس به ، حتىٰ كانت تضحياتهم في هذا المجال أروع وأخطر القضايا ، لأنها أودت بالكثير منهم إلىٰ السجن أو الموت أو التعذيب الشديد .

ذلك لأن المسألة لا تتوقف عند موقف يتنازل عنه الإنسان ، أولا ، إنما المسألة لأن العلماء في نظر الشريعة الإسلامية لهم دور كبير وعظيم ، وهو دور : « ورثة الأنبياء » وبالتالي فالعلماء بحق هم المصابيح التي تنير أمام الناس الطريق ، وهم أئمة الهدىٰ ، وحجة الله في أرضه ، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال ـ كما في مسند الإمام أحمد ـ : « إنَّ مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » .

لكن الشريعة لا تنظر إلىٰ جانب واحد فقط ـ وهم العلماء ـ إنَّما توسّع الدائرة ، فترىٰ صلاح الناس لا يكون إلا بصلاح الحكام والعلماء ، روىٰ أبو نعيم بالسند المتصل إلىٰ رسول الله ﷺ أنه قال : « صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » .

والناس تتبع توجيهات العلماء ونصائحهم ، وتخضع لسلطان الحكام وتنفذ أوامرهم ، ولن تؤول أمة إلىٰ هاوية إلاّ إذا فسد علماؤها

وحكامها ، وقد روىٰ البخاري ومسلم قول رسول الله ﷺ : « يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور كما يدور الحمار في الرحىٰ ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؟ فيقول : بلىٰ كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه » .

وروىٰ الطبراني أن النبي ﷺ قال : « إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمه كفره ، ولكن أتخوف عليهم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون » .

ورحم الله القائل :

يـا معشـر القـرّاء يـا ملـح البلـد من يصلح الملح إذا الملح فسد؟!

لكن إذا رفض الحاكم السماع لنصيحة العالم ، وأصرّ علىٰ ظلمه وانحرافه ، هنا يدخل العالم في مسألة المحن والفتن ، وعندئذٍ فما عليه إلا الصبر والثبات ، ذلك لأن سنة الله في الكون هي الفتنة والاختبار ، وذلك بهدف التمحيص ، كما قرر الله ذلك في القرآن الكريم :

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ١ـ٣] .

لأن الدنيا ستنقضي بلحظات ، والفائز الحق هو الذي يبيع كل ما يملك ـ حتىٰ روحه ـ ليشتري رضوان الله وجنته ، قال الله تعالىٰ :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

وقد حدثنا التاريخ عن نماذج من بطولات علمائنا هي الأنموذج

للقدوة والأسوة ، من ذلك : الإمام الفقيه أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالىٰ :

كان جريئاً في الفتوىٰ ، شديداً في محاسبته للأمراء والحكام ، حتىٰ إن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور قد أبدىٰ تضايقه من آرائه وفتاويه ، فكانت الخطوة الأولىٰ للمحنة أن أصدر قراراً بمنعه من الفتوىٰ ! !

روىٰ الخطيب البغدادي : أن القاضي (ابن أبي ليلىٰ) نظر في أمر امرأة مجنونة قالت لرجل : يا بن الزانية ، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة وحدّها حدّين : حداً لقذف أبيه ، وحداً لقذف أمه ! !

فبلغ ذلك أبا حنيفة رحمه الله تعالىٰ ، فقال : أخطأ فيها في ستة مواضع :

ـ أقام عليها الحدّ في المسجد ! ولا تقام الحدود في المساجد .

ـ وضربها قائمة ! والنساء يضربن قعوداً .

ـ وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ! ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد .

ـ وجمع بين حدين ! ولا يجمع بين حدين .

ـ والمجنونة ليس عليها حد !

ـ وحدّ لأبويه وهما غائبان ! ولم يحضرا فيدعيا .

فبلغ ذلك ابن أبي ليلىٰ ، فدخل على الأمير فشكاه إليه ، وحجر علىٰ أبي حنيفة ، وقال : لا يفتي ، فلم يفت أياما[1] .

ثم مارسوا معه لوناً آخر من الإغراء ، فعرضوا عليه الأموال ، فأبىٰ

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣/ ٣٥١ .

وقال : لو كانت من أموالكم لقبلتها هدية ، لكنها من أموال المسلمين ولا حق لكم في بيت مال المسلمين!!

ثم ندبوه إلىٰ منصب القضاء فرفض ، وعلّل الرفض بأنه يريد المحافظة علىٰ هذا المنصب نظيفاً لا يضغط أحد عليه مهما كان مركزه مرموقاً .

قال الربيع بن يونس : رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول : اتق الله ولا تدع أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟

ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو إلىٰ الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلىٰ من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك .

فقال الخليفة : كذبت ، أنت تصلح .

فقال أبو حنيفة : قد حكمت علىٰ نفسك ، كيف يحلّ لك أن تولّي قاضياً علىٰ أمانتك كذّاباً ؟!![1] .

وأمر الخليفة أن يوضع في بيته بصفة الإقامة الجبرية ، ومُنع من لقاء الناس والتدريس وما إلى هنالك .

ثم وضع في السجن ، وضرب مئة وعشرة أسواط ، ثم دسّوا له السم ، وفاضت روحه إلى بارئها في (١٥٠هـ) لتكون شاهداً على حراسة العلماء لهذا الدين ، ولتكون أنموذجاً لتضحيات العلماء في سبيل العلم ، ورحم الله الإمام محمد أبو زهرة عندما قال : . . وماتَ أبو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء ، وكان في الموت راحة لذلك الضمير المضيء ، ولذلك الوجدان الديني المرهف ، ولذلك القلب القوي ،

---

(١) تاريخ بغداد : ٣٢٨/١٣ .

ولذلك العقل الجبار ، ولتلك النفس الصبور ، التي لاقت الأذى فاحتملته ، لاقته من المخالفين له في الآراء ورميت في كل رمية ، فتحملتها مطمئنة راضية مرضية ، ولقيت الأذىٰ من السفهاء ثم لقيته من الأمراء والخلفاء .

وما ضعفت وما وهنت ، وإذا كان للنفوس جهاد ، ولجهادها ميادين ، فأبو حنيفة رضي الله عنه كان أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد ، وممن انتصر في كل ميادينه .

وكان جلداً في جهاده قوياً في جلاده ، حتىٰ وهو يلفظ النفس الأخير ، فهو يوصي بأن يُدفن في أرض طيبة لم يجر عليها غصب ، وألا يدفن في أرض اتهم أمير المؤمنين بأنه غصبها ، حتىٰ يروىٰ أن أبا جعفر المنصور عندما علم ذلك قال : من يعذرني من أبي حنيفة حياً أو ميتاً ! !(١) .

وهكذا ، فقد ضُرب إمام دار الهجرة ، الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ ، سبعين سوطاً ، حتىٰ قيل لقد خُلعت كتفه اليمنىٰ ، وهو ثابت علىٰ أمانة العلم لا يخاف في الله لومة لائم(٢) .

أجل : ومحنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ في مسألة خلق القرآن أشهر من علم ، لقد صمد صمود الجبال الرواسي من أجل المحافظة علىٰ قدسية العلم ، لينقل الأمانة ممن سبقه إلى الأجيال القادمة .

كان ذلك في فترة المأمون ، حيث وُضع الإمام في السجن مدة ثمانية وعشرين شهراً . ولم يغير رأيه ولم يبدل موقفه ، وأدخلوا عليه أعز الناس

---

(١) أبو حنيفة لأبي زهرة : ٥١ـ٥٣ .

(٢) للتوسع يراجع : الإمام مالك لأبي زهرة : ٦٠ـ٩٥ .

عليه ليكلمه في الأمر ، وما كان منه إلا أن يردد : وكيف تصنعون بحديث خباب : « إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار لا يصده عن دينه شيء »!![1] .

أجل! فكثير من العلماء الأفذاذ امتحنوا ولاقوا في سبيل العلم الشيء الكثير ، أمثال ذلك : محنة سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وجعفر الصادق ، والشافعي ، والبخاري ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية رضي الله عنهم وأرضاهم[2] .

* * *

وهكذا صبر العلماء علىٰ الفقر وشظف العيش ، وضربوا في ذلك أروع الأمثلة .

صحيح أن الفقر يعتبر في ميزان الشريعة الإسلامية خطراً على العقيدة ، لأنه يعرّض الإنسان للشك في حكمة الإله سبحانه ، ولذلك قال علماء السلف الصالح : إذا ذهب الفقر إلىٰ بلد قال له الكفر : خذني معك!! ورحم الله الشاعر حيث قال :

كم عالمٍ عالمٍ أعيتْ مذاهبهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الألباب حائرةً وصيّر العالم النِّحرير زنديقا!!

وصحيح أن الفقر يعتبر خطراً على الأخلاق والسلوك ، لأنه يضطر الإنسان إلىٰ انحراف هنا وهناك ، وقد روىٰ البخاري بالسند المتصل إلىٰ

---

(١) للتوسع يراجع : تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٣٤٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي : ١٤٦ .

(٢) للتوسع يراجع : الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البدري ، وكتب التراجم والسير والطبقات ، ففيها نماذج عن حكايات العلماء وصمودهم وثباتهم وتضحياتهم في سبيل العلم .

رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ الرجل إذا غرم ـ استدان ـ حدث فكذب ، ووعد فأخلف » .

وصحيح أن الفقر يعتبر خطراً على تفكير الإنسان ، بحيث يشغله ذلك عن الجانب الروحي والخلقي ، ويجعله مشتت الفكر مشغول البال ، وقد روى محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمهما الله تعالىٰ أن جارية أخبرت الإمام يوماً في مجلسه أن الدقيق نفد ، فقال لها : قاتلك الله! لقد أضعتِ من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه!! كيف لا ؟ وأبو حنيفة هو الذي يؤكد على ذلك بقوله :

لا تستشر من ليس في بيته دقيق!! ورحم الله الشاعر حين قال :

إذا قلَّ مالُ المرء قلّ بهاؤهُ وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان دارياً أقدَّامُه خيرٌ له أم وراؤهُ!!

وصحيح أن الفقر يعتبر خطراً علىٰ الأسرة والمجتمع بأسره ، وذلك لأن بناء الأسرة بحاجة إلىٰ مال ، واستمرار بقاء الأسرة وتماسكها بحاجة إلى إنفاق ، وإلا لماذا ندّد الإسلام بقتل الأطفال ؟ إنه الفقر المدقع ، والذي يجعل الأب لا يعرف من أين يأتي بالأموال للإنفاق علىٰ عياله ، قال تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

وهكذا فالفقر له خطر علىٰ استقرار المجتمع ، من خلال الأثر علىٰ الصحة العامة ، وسوء التغذية ، وسوء التعليم ، وسوء الإنتاج ، وما إلىٰ هنالك .

لكن الإسلام وضع برنامج عمل للقضاء علىٰ الفقر ، يتمثل في أمور فرضية كالزكاة ، وأمور طوعية كالوقف الخيري ، واعتبر أن كرامة الإنسان لا تقدّر بما يملك من أموال ، إنَّما المسألة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ [غافر : ٥٨] . وهذا الميزان الإسلامي عجزت الدنيا وأنظمتها الوضعية أن تأتي بمثله ، وستعجز إلىٰ الأبد ، لأنه الميزان الإلهي وحده[١] .

لكن أمام ذلك كله ، فقد سطر العلماء السابقون صفحات نادرة ، وهم يعانون الفقر وشظف العيش ، وقلة المفروشات والملبوسات ، ونفاد المال والنفقات ، وأهوال الغربة والترحال ، وبيع الممتلكات والأثاث ، وهم بذلك إنما يؤكدون علىٰ مسألة التضحية في سبيل العلم ، وليس في ذلك تناقض بين نظرة الإسلام للفقر وبين ما كانوا عليه ، إنما القضية هي الإيثار كله ، فكما أن بعضهم آثروا العلم علىٰ لذة النكاح ومتعتها ، كذلك آثر البعض العلم علىٰ كل أنواع الطعام وألوان الشراب وما إلىٰ هنالك ، ولعلّ فلسفتهم لذلك الأمر كانت تأتي من قناعاتهم العجيبة!! ومن ذلك ما رواه ابن الجوزي قال : ذكر عند الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ رجلاً صبوراً علىٰ الفقر في أطمار ، فقال لواحدٍ من تلاميذه : اذهب حتىٰ تأتيني بخبره ، سبحان الله ، الصبر علىٰ الفقر ، الصبر علىٰ الفقر ، ما أعدل بالصبر علىٰ الفقر شيئاً ، تدري الصبر علىٰ الفقر أي شيء هو ؟!

---

(١) للتوسع في الحديث عن هذا الميزان يراجع : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، فصل نظرات في الميزان ، للمؤلف ، ط١/ ١٩٩٥ دار المكتبي بدمشق .

أتدري إذا سألك أهلك حاجةً لا تقدر عليها ، أي شيء لك من الأجر ؟!

أسرُّ أيامي إليّ : يوم أصبح فيه وليس عندي شيء ، ما قلّ من الدنيا كان أقلَّ للحساب ، إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل ، وكان إبراهيم بن أدهم ينشد :

وما هي إلا جوعةٌ قد سددتها وكل طعامٍ بين جنبيَّ واحد

وكان أحمد رحمه الله يقول : الغنىٰ من العافية ، والدنو من المترفين فتنة! والجلوس معهم فتنة! وإن لكل شيء كَرَماً ، وكرم القلب : الرضا عن الله تعالىٰ .

وكان يقول لبعض أصحابه : كم يعيش أحدنا ؟ خمسين سنة ؟ ستين سنة ؟ كأنك بنا قد متنا! ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمّي فسقط!![1] .

ومن ذلك قول الإمام النحوي ابن هشام (ت : ٧٦١هـ) رحمه الله تعالىٰ :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العُلا يسيراً يعش دهراً طويلاً أخا ذلّ

ومن ذلك قول بعضهم ـ ويقال إنه للإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ ـ :

الجوع يُدفع بالرغيف اليابس فعلام أكثر حسرتي ووساوسي ؟!
والموت أنصف حين ساوىٰ حكمه بين الخليفة والفقير البائس

---

(١) مناقب الإمام أحمد : ٤٤ـ٤٥ .

ومن ذلك قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ :

أمطري لؤلؤاً سماء سرنـد ... يب وفيضي آبار تكرور تبرا[1]
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي ... نفسُ حُرّ ترىٰ المذلة كُفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عُمري ... فلماذا أزور زيداً وعمرا ؟!

ومن ذلك قول واحد منهم :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر ... فقال الصبور : يا صبر صبرا!!

وذلك العلامة القاضي الزبيدي (ت : ٩٣٠هـ) رحمه الله تعالىٰ يحدد المسألة بقوله :

قلت للفقر : أين أنت مقيم ؟ ... قال لي : في عمائم الفقهاء
إن بيني وبينهم لإخاءٌ ... وعزيز عليّ قطع الإخاء!!

وذلك واحد آخر من العلماء يدلي بفلسفته الخاصة فيقول :

إن الفقيه هو الفقير وإنما ... راء الفقير تجمّعت أطرافها

ومن النماذج الرائعة علىٰ ما ألمّ بالعلماء من سوء حال في سبيل طلبهم العلم :

قال ابن القاسم ـ تلميذ الإمام مالك ـ : أفضىٰ بمالك طلب العلم إلىٰ أن نقض سقف بيته فباع خشبه!!

ورحم الله الإمام أبو يوسف ـ صاحب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله يحدثنا عن نشأته فيقول : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثّ الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه ، فقال :

---

(١) سرنديب : جزيرة في أقصى الهند ، وتكرور : اسم بلاد بأقصى جنوب المغرب .

يا بني! لا تمدّن رجلك مع أبي حنيفة ، فإن أبا حنيفة خبزه مشويّ ، وأنت تحتاج إلىٰ المعاش ، فقصّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة أبي .

فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهد مجلسه . فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟

قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فجلست ، فلما انصرف الناس دفع إليّ صرة وقال : استمتع بهذه ، فنظرت فإذا فيها مئة درهم ، فقال لي : الزم الحلقة ، وإذا نفدت هذه فأعلمني .

فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليّ مئة أخرى ، ثم كان يتعاهدني ، وما أعلمته بخلّة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ما ، وكان كأنّه يُخبر بنفادها حتىٰ استغنيت وتموّلت ، فلزمت مجلسه (٢٩) سنة ، حتىٰ بلغت حاجتي ، وفتح الله لي ببركته وحُسن نيته ما فتح من العلم والمال ، فأحسن الله عني مكافأته وغفر له[1] . ورحم الله الإمام الشافعي ، حيث حدث الناس عن نشأته وفقره ويتمه ، لكنه صبر علىٰ ذلك كله حتىٰ فتح الله عليه ، قال :

كنت يتيماً في حجر أمي ، فدفعتني في الكُتّاب ، ولم يكن عندها ما تُعطي المعلم ، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام .

فلما ختمت القرآن ، دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء ، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها ، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيس ، فكنت إذا رأيت عظماً يلوح ، آخذه فأكتب فيه ، فإذا امتلأ طرحته في جرّة كانت لنا قديماً . ثم قدم والٍ علىٰ اليمن ، فكلمه لي بعض القرشيين أن أصحبه ، ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتجمّل به ، فرهنت

---

(١) تاريخ بغداد : ١٤/ ٣٤٤ .

رداءها بستة عشر ديناراً ، فأعطتني فتجمّلت بها معه ! ![1] .

ورحم الله الحافظ حجاج بن الشاعر (ت : ٢٥٩هـ) ، وهو يحدثنا عن صبره في تحمّل ضيق ذات اليد من أجل نيل العلوم والمعارف ، فيقول :

جمعت لي أمي مئة رغيف ، فجعلتها في جراب وانحدرت إلى شبابة بالمدائن ، فأقمت مئة يوم ببابه ، أجيء بالرغيف فأغمسه في دجلة وآكله ، فلما نفدت خرجت ! ![2] .

ورحم الله إمام الظاهرية داود بن علي الأصبهاني الظاهري (ت : ٢٧٠هـ) ، وقد تحمّل في سبيل تحصيل العلوم الشيء الكثير ، لكن فلسفته الخاصة تذكر دائماً بقول القائل :

إذا سَمَتْ عين من تهواه عن ذهبٍ فالتِّبر والتُّرب في الدنيا لديك سَوَا

قال القاضي الفقيه أبو عبد الله المحاملي :

صليتُ صلاة عيد الفطر في جامع المدينة ، وقلت : أدخل علىٰ (داود بن علي) فأهنّيه ، فجئته وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هندباء ، وعصارة فيها نخالة وهو يأكل ، فهنأته وعجبت من حاله ! ورأيت أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء ! فخرجت من عنده ودخلت علىٰ رجل من محبّي الخير يقال له : الجرجاني ، فخرج إليّ حاسر الرأس حافي القدمين ، وقال لي : ما عنّىٰ القاضي ؟ !

قلت : مهم !

قال : ما هو ؟

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ١/ ٩٨ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي : ٢/ ٥٥٠ .

قلت : في جوارك (داود بن علي) ومكانه من العلم ما تعلمه ، وأنت كثير الصلة والرغبة في الخير تغفل عنه ؟ وحدثته بما رأيت .

فقال الجرجاني : داود شرس الخلق! وجهتُ إليه البارحة بألف درهم ليستعين بها فردّها عليّ ، وقال للغلام : بأي عين رأيتني ؟ وما الذي بلغك من حاجتي وخلّتي حتىٰ بعثت لي بهذا ؟!

قال المحاملي : فعجبت وقلت للجرجاني : هات الدراهم ، فإني أحملها إليه ، فدفعها إليّ ، وقال للغلام : ائتني بكيسٍ آخر ، فوزن ألفاً أخرىٰ وقال : تلك لنا وهذه لعناية القاضي ، فأخذت له الألفين وجئت إليه ، فقرعت الباب ودخلت وجلست ساعة ، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه .

فقال : هذا جزاء من ائتمنك على سرّه ؟ أنا بأمانة العلم أدخلتك إليّ ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك!!

قال المحاملي : فرجعت وقد صغرت الدنيا في عيني ، وأخبرت الجرجاني فقال : إني أخرجت هذه الدراهم لله تعالىٰ فلا ترجع في مالي ، فليتولّ القاضي إخراجها في أهل البر والعفاف!![1] .

ورحم الله الحافظ (بقيّ بن مخلد القرطبي) ، فقد عاش حياة الفقر ، وباع حتىٰ بعض ثيابه ، وأكل أردأ أنواع الطعام ، وضحّى بكل شيء من أجل تحصيل العلوم ، وذات يوم وهو جالس بين طلابه أراد أن يبين لهم الطريق ، فقال : أنتم تطلبون العلم ؟ وهكذا يُطلب العلم ؟! إنما أحدكم إذا لم يكن عليه شغل يقول : أمضي أسمع العلم! إني لأعرف رجلاً ـ يعني نفسه ـ تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ، لا يكون له عيش إلا من

---

(١) وفيات الأعيان : ١/١٧٦ .

ورق الكُرنب ـ السّلق ـ الذي يُلقيه الناس!

وإني لأعرف رجلاً باع سراويله غير مرة في شراء كاغد ـ ورقة الكتابة ـ حتىٰ يسوق الله إليه من حيث يُخلفها!![1] .

ورحم الله القاضي أبا علي الهاشمي (ت : ٤٢٨هـ) ، فقد رسم المنهج ووضع أنموذجاً لطلابه وللناس من بعده نفسه التي بين جنبيه :

ذكر أبو علي بن شوكة ، قال : اجتمعنا جماعة من الفقهاء ، فدخلنا علىٰ القاضي أبي علي الهاشمي ، فذكرنا له فقرنا وشدّة ضُرّنا!

فقال لنا : اصبروا ، فإنَّ الله سيرزقكم ويوسّع عليكم ، وأحدّثكم في مثل هذا بما تطيب به قلوبكم :

أذكر سنة من السنين وقد ضاق بي الأمر شيئاً عظيماً ، حيث بعتُ رحل داري ، ونفد جميعه ، ونقضتُ الطبقة الوسطىٰ من داري ، وبعت أخشابها ، وتقوّت بثمنها ، وقعدت في البيت فلم أخرج ، وبقيت سنة!

فلما كان بعد سنةٍ قالت لي المرأة : الباب يُدق ، فقلت لها : افتحي الباب ، ففعلت ، فدخل رجل فسلّم عليّ ، فلما رأىٰ حالي لم يجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس من شدة تصيبك إلا ... سوف تمضي وسوف تُكشف كشفا
لا يضق ذرعك الرحيب فإن النا ... ر يعلو لهيبها ثم تطفا
قد رأينا من كان أشفىٰ على الهُلـ ... ـك فوافت نجاته حين أشفى

ثم خرج عني ولم يقعد ، فتفاءلت بقوله ، فلم يخرج اليوم عني حتىٰ جاءني رسول (القادر بالله) ، ومعه ثياب ودنانير ، وبغلة بمركب ، ثم قال لي : أجِبْ أمير المؤمنين ، وسلّم إليّ الدنانير والثياب والبغلة ،

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ٧/ ٨٣ .

فغيّرت عن حالي ، ودخلت الحمّام ، وصرت إلى (القادر بالله) ، فردّ إليّ قضاء الكوفة وأعمالها ، وأثرىٰ حالي ! ![1] .

ورحم الله الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت : ٥٦١هـ) ، والذي حدث عن نفسه حديثاً فيه الدليل الدامغ علىٰ ما لاقاه العلماء في سبيل تحصيل العلم ، ومختصره :

. . . وكنت أقتات بخرنوب الشوك ، وقمامة البقل وورق الخسّ من جانب النهر والشط ، وبلغت الضائقة في غلاءٍ نزل ببغداد إلى أن بقيت أياماً لم آكل فيها طعاماً ، بل كنت أتتبّع المنبوذات أطعمُها !

فخرجت يوماً من شدة الجوع إلى الشط ، لعلي أجد ورق الخس أو البقل ، أو غير ذلك ، فأتقوّت به ! فما ذهبت إلىٰ موضع إلا وغيري قد سبقني إليه ! وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حُبّاً .

فرجعت أمشي وسط البلد فما أُدرك منبوذاً إلا وقد سُبقتُ إليه ، حتىٰ وصلت إلىٰ مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد ، وقد أجهدني الضعف ، وعجزت عن التماسك ، فدخلت إليه وقعدت في جانب منه ، وقد كدت أصافح الموت ! إذ دخل شاب أعجمي ، ومعه خبز صافي وشواء ، وجلس يأكل ، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع ، حتىٰ أنكرت ذلك علىٰ نفسي ، فقلت : ما هذا ؟ !

وقلت : ما ها هنا إلا الله أو ما قضاه من الموت !

إذ التفت إليّ العجمي فرآني فقال : بسم الله يا أخي ، فأبيت فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها ، فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً ، فأخذ يسألني : ما شغلك ؟ ومن أين أنت ؟ وبمن تُعرف ؟

---

(١) طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلىٰ : ٢/ ١٨٥ .

فقلت : أنا متفقّه من جيلان ، فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر ، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ؟

فقلت : أنا هو .

فاضطرب وتغيّر وجهه وقال : والله لقد وصلتُ إلىٰ بغداد ومعي بقيّة نفقة لي ، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ، ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا ما كان لك معي ، وقد حلَّت لي الميتة ، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبز والشواء فكُل طيباً ، فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي!!

فقلت له : وما ذاك ؟ فقال : أمك وجَّهت لك معي ثمانية دنانير ، فاشتريت منها للاضطرار فأنا معتذر إليك ، فسكنته وطيبت نفسه ، ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة ، فقبله وانصرف!![1] .

ورحم الله الإمام ابن الجوزي ، والذي يتحدث عما ناله في سبيل تحصيل العلم ، فقال : . . . ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ، ألقىٰ من الشدائد ما هو عندي أحلىٰ من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو :

ومن تكن العلياء همّة نفسه فكلّ الذي يلقاه فيها محبّبُ

كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفةً يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد علىٰ نهر عيسى ـ في بغداد ـ فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلتُ لقمة شربت عليها ، وعين همتي لا ترىٰ إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرفت بكثرة سماعي لحديث

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي : ١/ ٢٩٨ .

الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم .

ثم قال : ولم أقنع بفنّ واحد ، بل كنت أسمع الفقه والحديث ، وأتبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره ، وأتخيّر الفضائل .

ولقد كنت أدور علىٰ المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نفسي من العدو لئلا أسبق ، وكنت أُصبح وليس لي مأكل! وأمسي وليس لي مأكل! ما أذلّني الله لمخلوقٍ قط ، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح!![1] .

***

أجل! لقد لاقى العلماء في سبيل الحصول علىٰ العلوم مصاعب ومتاعب كثيرة ، حتىٰ إنهم تحمّلوا بيع بعض الثياب ، وتحمّلوا نفاد المال ، وتحمّلوا الغربة وما فيها من كرب ، بل باعوا كل ما يملكون ، وبذلوا المال كله في هذا السبيل ، وفي كتب التراجم والسير ما فيه العجب العجاب ، من ذلك :

ما رواه الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عما لاقاه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ قال :

. . . وسُرقت ثيابه وهو باليمن ، فجلس في بيته وردَّ عليه الباب ، وفقده أصحابه ، فجاؤوا إليه فسألوه فأخبرهم ، فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ، ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ، ليكتب لهم به ـ أي أجرة نسخه الكتب لهم ـ فكتب لهم بالأجر!![2] .

ورحم الله الإمام البخاري ، والذي روى عنه تلميذه قصة عجيبة ، قال عمر بن حفص الأشقر :

---

(١) صيد الخاطر : ٢/ ٣٣٠ .

(٢) البداية والنهاية : ١٠/ ٣٢٩ .

إنهم فقدوا البخاري أياماً من كتابة الحديث بالبصرة ، قال : فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عُريان ، وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث!![1] .

ورحم الله المقرئ المحدث الفقيه : أبا الحسن علي اليزدي (ت : ٥٥١هـ) ، والذي جاء في ترجمة حياته :

كان دائم البشر ، سخيّ الطبع بما يملكه ، قانعاً بما هو فيه ، متواضعاً ، عاملاً بعلمه ، كثير المحفوظ ، من الفقهاء المتعبدين ، وصنّف الكثير ، وزادت مصنفاته علىٰ خمسين مصنفاً في أنواع العلوم ، حديثاً وفقهاً وزهداً .

قال السمعاني : وكان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ، إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت! وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت!

سمعته يقول وقد دخلت عليه داره مع علي بن الحسين الغرنوي الواعظ ، مُسلّماً عليه ، فوجدناه عُرياناً متأزّراً بمئزر ، فاعتذر من العُري ، وقال : نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قـومٌ إذا غسلـوا ثيـاب جَمَـالهـم لبسوا البيوت إلىٰ فراغ الغاسل!![2]

أجل!

فلن يصل الإنسان إلى مرحلة تحصيل العلوم إلا إذا بذل في سبيل ذلك أغلىٰ ما يملك ، كما قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالىٰ :

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٢/ ٢٣ .

(٢) طبقات الشافعية للإمام السبكي : ٧/ ٢١١ .

مـــن لـــم يـــر العلـــم أغلـــىٰ مـــن كـــل شـــيء يُصـــابُ
فليـــــس يُفلـــــح حتـــــىٰ يُحثـــــىٰ عليـــــه التـــــرابُ

حتىٰ المال ، الذي يدافع عنه الإنسان إلىٰ درجة عجيبة ، مصداق ما وصف الله الإنسان به : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٨] ، فالتخلي عنه أمر صعب وشاق ، والتضحية به نوع من الفداء حقاً ، لكن العلماء ضربوا أروع الأمثلة في التضحية بالمال في سبيل الحصول على ألوان العلوم ، ومن الأمثلة على ذلك :

ما روي عن شيخ البخاري (محمد بن سلام البكندي) (ت : ٢٢٥هـ) رحمه الله تعالىٰ ، أنه قال : أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفاً ، وأنفقت في نشره أربعين ألفاً ! !(١) .

ورحم الله تلميذ الإمام مالك (ابن القاسم) ، والذي روي عنه قوله :

خرجت إلىٰ الحجاز اثنتي عشرة مرة ، أنفقت في كل مرة ألف دينار ! !(٢) .

ورحم الله الإمام يحيىٰ بن معين (ت : ٢٣٣هـ) ، والذي خلّف له والده : ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفقه كله علىٰ الحديث ، حتىٰ لم يبق له نعل يلبسه ! !(٣) .

ورحم الله اللغوي (ابن الكوفي) (ت : ٣٤٨هـ) ، والذي جاء في ترجمته :

عالم ، صحيح الخط ، راوية ، جمّاعة للكتب ، صادق الرواية ،

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٠/ ٦٣٠ .
(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ٣/ ٢٤٨ .
(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ١١/ ٢٨٢ .

منقّر بحّاث ، من أصحاب أبي العباس ثعلب المختصين به .

كان أبوه من أهل ذوي اليسار من أهل الكوفة ، واشتغل ولده هذا بطلب العلم من يومه ، ولما مات أبوه خلّف له زائداً عن خمسين ألف دينار ، فصرفها كلها في طلب العلم ، وتحصيل الكتب اشتراءً واستنساخاً وكتابةً ، وصرف من ذلك جزءاً صالحاً لفقراء طلبة العلم ، وكان منزله مغشياً منهم ، ونفقاته عليهم واسعة . فأما ما كتبه ففي غاية الجودة والإتقان ، والموجود منها في زماننا هذا ، إذا تُؤمِّل دلّ علىٰ تيقظ وبحث ورغبة ، وقد كانت لكثرتها يُعيّنُ لكل نوع منها موضعاً مخصوصاً من خزائنه ، ويكتبه علىٰ أول الكتاب ليجده إذا طلبه ، ويعيده إلىٰ موضعه المعلوم إذا عُني عنه ، رحمه الله ، فما كان أسنىٰ أفعاله!![1] .

ورحم الله الإمام المقرئ الفقيه : أبا الوفاء بن عقيل الحنبلي (ت : ٥١٣هـ) ، والذي كان له مع العلم أشياء عجيبة ، فلقد وهب نفسه وماله ، واستغل كل لحظة في سبيل تحصيل العلم ، وضحىٰ بكل شيء في ذلك :

قال عن نفسه : . . . لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتىٰ إذا تعطّل لساني عن مذاكرةٍ ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي ، وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي علىٰ العلم وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة!

وأنا أقصّر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتىٰ أختار سفّ الكعك وتحسّيه بالماء علىٰ الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفراً

---

(١) إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة للقفطي : ٢/ ٣٠٥ .

علىٰ مطالعة ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه ، وإن أجل تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت ، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص ، فالتكاليف كثيرة ، والأوقات خاطفة .

وقال أحد أهم تلامذته الشيخ ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ : كان الإمام ابن عقيل دائم الاشتغال بالعلم ، وكان له الخاطر العاطر ، والبحث عن الغوامض والدقائق ، وجعل كتابه المسمّى بـ (الفنون) مناطاً لخواطره وواقعاته .

وقال الحافظ ابن رجب : وللإمام ابن عقيل تصانيف كثيرة في أنواع العلوم ، نحو العشرين تصنيفاً ، وأكبر تصانيفه كتاب (الفنون) وهو كتاب كبير جداً ، فيه فوائد كثيرة جليلة ، في الوعظ ، والتفسير ، والفقه ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والتاريخ ، والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له ، وخواطره ونتائج فكره ، قيّدها فيه .

وقال الحافظ الذهبي : لم يُصنّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب ، حدثني من رأىٰ منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة !

وقال الحافظ ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثمانمئة مجلد ! ![1] .

ورحم الله العلامة ابن الجوزي وهو يوصي ولده ، ويحدثه عن نشأته وماذا حدث له :

واعلم يا بنيّ ، أن أبي كان موسراً وخلّف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لي : هذه التركة كلها ، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعت الدارين وأنفقت ثمنها

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب : ١/ ١٤٣ـ١٤٥ .

في طلب العلم ، ولم يبق لي شيء من المال ، وما ذلّ أبوك في طلب العلم قط ، ولا خرج يطوف في البلدان من الوعاظ ، ولا بعث رقعة إلىٰ أحدٍ يطلب منه قط ، وأموره تجري علىٰ السداد : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] .

فاجتهد يا بني في صيانة عرضك من التعرّض لطلب الدنيا والذلّ لأهلها ، واقنع تُعزّ ، فقد قيل : من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد .

ولقد كنت أصبح وليس لي مأكل ، وأمسي وليس لي مأكل ، ما أذلّني الله تعالىٰ لمخلوق قط ، ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي . . !![1] .

* * *

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي : ٤/١٣٤٧ ، ورسالة : لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي : ١٧ .